

التاريخ في سبر أبطار

مازيني

[رسول الحرية إلى قومه، المجاهد الذي أبلى في جهاده مسلح بلاء الأنبياء]

للأستاذ محمود الحنفيف

- ٢ -

—>>><<—



والتحق الفتى
بالجامعة في جنوة
حيث بدأت فترة
نشاطه في قراءة
الآداب والتزود
بشتى فروع المعرفة
كما يدخل في نطاق
دراسته ؛ وما كان
اعتماده فيما يقرأ على
الجامعة ، فلو أنه

قصر همه على ما كانت تزجيه لطلابها من الدروس والكتب لكان له
وجهة غير التي اتجهها في المطالعة والبحث ولكانت ثقافته من نوع
محدود ، هو ذلك النوع الذي يمد الطلاب للإجازات التي تمنحها
الجامعات لأبنائها دلالة على أنهم درسوا هذه الفنون أو تلك
في مستوى معين وعلى صورة معينة ما تكاد تختلف في طالب عنها
في آخر

وما كان الفتى ممن يسهل قيادهم من الفتيان فيولون الوجهة
التي يريدونها لم غيرهم ، وإنما كان بطبعه ناثراً على كل قيد ،
ما رأى شبح القواعد التي تحد من الحرية في شئ إلا نفر منه ثم
حول على تخبط تلك القيود ولو أسابه من وراء ذلك الإعانت
والإجرايح ؛ وكثيراً ما أدى ذلك إلى شكوى القاعين على شؤون

الجامعة ، وإلى اتهام من يجمل خلقه إياه بأنه مشاغب متمرد ؛
أما الذين عرفوه معرفة خيرة فكانوا يحسون في ذلك التمرد وفي
ذلك التوثب روحاً قوية حرة لا يجدون نظيرها في أحد ممن حوله
من الطلاب

وكانت الحكومة وقد هالها ما هب من الثورات تقاوم كل
ميل إلى الحرية ما وسعها المقاومة ؛ وكانت الجامعات هي الأمكنة
التي تنظر إليها بعين الخوف والحذر ، ففي هذه الأبنية يلتقي الشباب ،
والتقاء الشباب في جماعات أمر لا يتفق في طبيعته مع تلك المقاومة
التي راحت تحكم الحكومة أمرها في طول البلاد وعرضها ؛
فلشباب أحلام وآمال لا تحد ، وفيهم حيوية وثوب ، ثم هم
يتزودون من المعرفة ؛ ومن كان هذا شأنهم ، أو من كانت هذه
طبيعتهم صعب على الأمرين أخذهم بالنف ، بل ما يكون العنف
إلا داعياً إلى المصيان فالتذمر فالثورة

وكان حراماً على الأساتذة أن يجاروا الطلاب في أهوائهم ،
أو أن يكون فيما يلقونه عليهم ما يحفزهم إلى أن يتجهوا الوجهة
التي لا ترضاها الحكومات لهم ؛ وكانت إدارة الجامعة في جنوة
لا تقبل من الطلاب غالباً إلا من تطلعن إلى سلوكه ومن يملك
أبوه قدراً معيناً من الثروة لتكون ثروته رهينة لدى الحكومة
متى شامت ؛ وحسبك أنها كانت تحتم على الطلاب أن يحملوا
شواربهم لأن الشوارب عندها كانت من علامات التمرد والنزوع
إلى الأفكار الثورية ؛ ومن خالف ذلك حمل على رغبته إلى أقرب
حلاق حيث يقضى على شاربه في غير رفيق ، ولا ندرى كم مرة
حمل فيها مازيني على هذه الصورة المضحكة !

وكانت له وهو لا يزال في الجامعة الزعامة على الطلاب جميعاً ؛
وهو بذلك يقدم البرهان العملي على أن الزعيم الشعبي يولد وفيه
صفات الزعامة ، فما يزال زعيماً في كل مراحل حياته حتى تنفاه
إليه كبرى الزعامات فيصيح في أمته الرجل الذي يعمل بوحية
الرجال أرادوا ذلك أو لم يريدوا

كان وسط إخوانه جاداً لا يعرف صفار الأمور ، عزوفاً
بطبعه عن اللو وإن كان يحب الرياضة البدنية ويجمل لها بعض
وقته ، فإذا كان لا بد من المزاج فهو مزاج الأديب الفطن ،

وقرأ مازينى فيما قرأ الفلسفة فدرس هيجل وكانت وغت
وهردر ، وصاحب روسو وفلتر فترة من الزمن ، ورجع إلى
ما كيانى وكان عنده فى السياسة كدائنى فى الأدب إذ كان كلاهما
إيطاليا وطانياً وإذ كان نبوغ كل منهما يدل على أن إيطاليا
جديرة بأن تخرج النوايخ الأفاضل

وكان فى إيطاليا يومئذ نزاع بين أنصار الأدب الابتداعى
(الرومانتيكى) وأنصار الأدب الانبائى (الكلاسيكى) ؛ فكان
من الطبيعى أن يشايح مازينى الفريق الأول ، فينتصر لأدب
الحرية والابتكار الذى يتحرر من القيود ويجرف السدود ،
وكم كان لذلك ممججاً بشاعر المجترعة العظيم اللورد بيرون ، ذلك
الذى كان يصل شمره إلى أعماق نفسه لما كان فيه من تمرد ونوب
ولما كان يوحى به من معانى اللزم والجهاد والتغلب على الشدائد ؛
وكان اسم بيرون يومئذ يدوى فى أنحاء أوروبا حتى لقد باتت كنيته
فتنة كل شاب فى كل لغة

وكان مازينى يقول إنه لن يتحقق لإيطاليا من جديد كيان
سياسى اجتماعى إلا إذا تحققت لها أدب يدعو إلى الحرية والتقدم .
ومما ذكره فى هذا الصدد قوله : « إن تشريع وآداب أمة
يسيران أبدأ فى خطين متوازيين » وقوله : « إن بين تقدم الثقافة
العقلية والحياة السياسية للأمة ارتباطاً وثيقاً » وتحدث عن
الأدب الابتداعى بقوله : « إن غرض الأديب الابتداعى هو أن
يعد الإيطاليين بأدب قوى أصيل ، لا بأدب كذلك الذى يكون
كصوت الموسيقى العابرة بطلا الأذن ثم يموت ؛ أدب يترجم لهم
عن نوازع نفوسهم وأفكارهم وحاجاتهم وحركتهم الاجتماعية »
وراح الشاب وهو فى الثالثة والمشرين يكتب فى الصحف
وقد صرف همه أول الأمر إلى النقد ، إذ كان يرجو من ورائه
أن يوجه أدب قومه إلى ما كان يريد ؛ وبدأ يكتب فى صحيفة
فى جنوة ولكنها عطلت بأمر الرقيب بعد عام ، فأنشأ صاحبها
غيرها وكتب إلى مازينى ليوافيه بأبحاثه ففعل منتبهاً ولكن
هذه الصحيفة لحقت بسابقتها بعد عام آخر ، فتماظم الأمر هذا
الشاب الحر ولكنه ما زاده إلا إيماناً بالحرية ومزايها

وتسنى لمازينى بعد جهده ليس بالقليل أن يتصل بأكبر صحف
بلاده وكانت تسمى (أنتولوجيا) وقد أخذت مواهبه ، كناقده
من أمهر النقاد ، تتجلى فى تلك الصحيفة

الذى يخلق ولا يسف ، والذى تمذب روحه دون أن يتنزل
شخصه . وكان له إلى الموسيقى ميل شديد ولكن على أنها شيء
تسمو به النفس وتستيقظ عليه الروح ، أما أن تكون ملهامة
أو مدعاة إلى المجون والعبث فذلك ما كان ينفر منه أشد النفور
وكان شخصه أبدأ يرحى إلى من حوله معانى الاحترام ؛
فصفاء ذهنه وحدة تفكيره يعلنان على المتحدث أن يفكر فيما يقول ،
وقوة خلقه وترفعه عن الدنيا تحول بين الكلمة النائية على لسان
غيره وبين الإعلان ؛ وإنه ليحوى الضعيف وينتصر للظالم ،
ويدافع عن الحق فى كل ما يعرض له من الأمور ؛ ثم إنه ليواسى
البائس ويمزى المحزون ، ويعد الفقير بما تملك يده من تقود
وكتب وملابس . ولسوف تكبر معه تلك الصفات وتنتقل من
مجال الجامعة إلى مجال إيطاليا كلها يوم ينفخ فيها من روحه
فيبث فى أرجائها الحياة والأمل

وكانت القراءة أحب هوية إلى نفسه منذ حداثة ، فكان
يكب على كل ما يقع فى يده من الكتب فايدعها حتى يأتى عليها ؛
ثم اتفق وبعض خلانه على تأليف جماعة للقراءة والدرس . وكانت
الحكومة بعد ثورات سنة ١٨٢٠ قد شددت الرقابة على الكتب
فلا تسمح بنشر ما يدعو إلى المبادئ الثورية منها أو ما توحى
تراءته بتلك المبادئ ؛ وكذلك شددت الحكومة الوثائق على الصحف
الأجنبية فلا تأذن بدخول البلاد إلا لما لا تخشى من دخوله .
من أجل ذلك عولت تلك الجماعة على تلمس السبل لتهرب الكتب
والصحف المحرمة ، ولقد نجحت فى ذلك نجاحاً مرضياً

وأقبل مازينى على كتب الأدب فراح يعبث مع شكسبير
وجوته وبيرون وشر ، وكان قد قرأ قبل هؤلاء دانتى وأعجب به
أعما إعجاب حتى لقد صار له المكان الأسمى فى قلبه

كان مازينى يرى رسالة الأدب على العموم والشعر على
الخصوص السمو بالنفوس وتطهيرها ، وبث الأمل فيها وتقويتها
وشحذ العزائم واستنهاض الهمم ، وإيجاد روح المحبة والمودة بين
الناس ، وكان يرى أن الشاعر الحق هو الذى يجمع بين الشعر
والحكمة فيطرب النفوس ويطير بها إلى الجواء العليا ثم يملأها
بمعانى الفضيلة ويستقيها على الجهاد والعمل ؛ أما الاقتصاد على
التفننى والوصف دون أن يكون من وراء ذلك غاية من فضيلة
أو عمل ذلك عنده ضرب من النقص

وما أجل ما كان يرى — أن قوة الشعب إن لم تكن منبثقة منه فلا أمل فيها، وأساس الوطنية والجهاد القوى اعتماد الشعب على إيمانه وتقته في نفسه أولاً، ولا خير بعد ذلك أن يتلقى الدون من غيره؛ ولكنه إن اعتمد على غيره وكانت تموزة العزيمة فليس له من أمل إلا أن يمينه ذلك الغير، وهذا أمر غير مضمون في كل وقت، وإذا كف ذلك الغير يده عظمت الخيبة وتسرب إلى النفوس اليأس على أنه على الرغم من هذا كان يرى في الجماعة الهيئة الوحيدة التي تعتبر عنصر المقاومة والفداء، ولذلك لم يتردد أن يضع يده على خنجر عار ويؤدي القسم على تنفيذ ما يأمر به؛ وكان من نظام الجماعة ألا يعرف العضو رؤسائه، وإنما يعرف زميلاً أو زميلين، ولقد أخلص مازيني لمبادئ الجماعة ونفى أمر إخلاصه وحماسته إلى رؤسائه القريبين، فأوفد من قبلهم إلى بعض الجهات مبشراً بتلك المبادئ عاملاً على ضم أعضاء جدد إلى الكاربوناري...

ورجفت الراجفة في فرنسا فاطاحت بالملك المتجبر عام ١٨٣٠؛ فرأى للمرة الثانية الدليل العملي على أن قوة الشعوب قد باتت أمراً يجدر بكل حاكم أن يحسب له ألف حساب؛ وأن هذه الشعوب إذا استنرت بعد هياج فلن تكون، إذا سلط عليها الظلم، إلا كالبحر يعظم جيشانه وقورانه بقدر ما كان من نظامه وثباته

وهبطت من وراء الألب على إيطاليا أنباء الثورة الجديدة في فرنسا والتمت بوارق الأمل للأحرار، وتأهب رجال الكاربوناري، وقد حسبوا أن قد جاء اليوم للموعود، ونشط مازيني وخلانه يذيعون مبادئ الجماعة ويهيئون بالشباب أن ينتظروا أول صيحة ولكن الحكومة ما لبثت أن ألقت القبض عليه، فلقد بثت من قبل عيونها بين صفوف هذه الجماعة واتهم مازيني بأنه كان يفرى أحدهم بالانضمام إليها. وأتى بالشباب المجاهد في غيابة السجن في سافر وهو يومئذ في الخامسة والعشرين، فكان هذا أول ملحقه من الآلام في حياته التي سوف تكون مليئة بالآلام

وسيق إلى المحاكمة فأتت إلى تبرئته لعدم توافر الأدلة ولأنه لم يقم إلا شاهد واحد عليه؛ ولكن السلطة خبرته بين الاعتقال في إحدى القرى أو النفي إلى خارج إيطاليا؛ فاختار النفي، وعبر جبال الألب إلى فرنسا، وكان يريد الذهاب إلى باريس حيث يجنح مبادئ الجماعة هناك، ولكنه تحول إلى ليون حيث انضم إلى المنفيين هناك من الإيطاليين وشاطروهم مرارة الاغتراب.

(يقيم)

وكان مازيني يجعل من الأدب يومئذ وسيلة إلى خدمة بلاده وكانت تحدنه نفسه بشئ المشروعات الأدبية يرى بها إلى الهدف الذي عينه، هدف القومية والحرية؛ ولكن هاجساً ظل يهيج في نفسه منذ ترك الجامعة أن الأدب ليس كل شيء، فهو وسيلة بطيئة، ولا سيما أن الرقابة تضيق مجاله أشد التضيق

وكان ذلك الهاجس يكره نفسه إذ كان يدعه في حيرة من أمره ويذره أحياناً بين اليأس والرجاء؛ فروحه الثوثية كانت تستبطن الوسيلة التي اتخذها وتوق إلى وسيلة غيرها ولكنه كان لا يدري ما عسى أن تكون الوسيلة الجديدة... أليس يحس يد البطش تقضي على كل ميل إلى المقاومة في كل جهة من جهات إيطاليا؟ ثم ألا يذكر ما حل بالثائرين قبل ذلك بنحو ثمانية أعوام؟ وما هو ذا مترنخ لا يزال يشهر سيف الرجعية فيخطف بريقه الأبصار ويبقى الرعب في الأفئدة

على أنه وإن عدم الوسيلة كان يرى الفاية واضحة أمامه أتم الوضع؛ وما كانت تلك الفاية إلا بناء إيطاليا من جديد على أساس قوي، فتصبح أمة واحدة تتمتع بالحرية وتبهر العالم كما تعودت أن تبهره من قبل بثافتها ومدنيتها؛ ولقد استقرت هذه الفاية في أعماق نفسه حتى أصبحت أغلى عنده من حياته؛ وما تهدأ تلك النفس التي تنزى في أغلال الرجعية حتى يؤدي رسالته أو يهلك دونها، مهما يرى أمامه من جبروت ويلس من بطش؛ ولكم سلح الحق الأعزّال وحطم الإيمان السلاسل والأغلال وكان الفتى منذ عامين قد اتصل بجماعة الكاربوناري وانضم إلى صفوفهم؛ وكانت تلك الجماعة لا تزال تضم إليها الأنصار في طول البلاد وعرضها، ولئن كان قد لحقها الوهن منذ ثوراتها عام ١٨٢٠، فلقد ظلت متماسكة، ولقد أخذت تنتشر حتى لقد جازت حدود إيطاليا وصار لها مراكز في القارة، وكان مراكزها الرئيسية في باريس، حيث اتصل زعمائها بالأحرار الناقمين على الملكية المتجبرة في فرنسا ملكية شارل العاشر، أو الكونت دا أرتوا ذلك الذي شهد بنفسه بالأسس القريب الثورة الكبرى ورأى مصير لويس المسكين فما اعتبر، بل طغى واستكبر، حين استوى على المرش وازدهاء التاج والصولجان.

ولكن جماعة الكاربوناري كان يعوزها المال والقيادة الحكيمة، وذلك ما كان يألم له مازيني أشد الألم، وكذلك كان يألم مازيني من اعتماد الجماعة على فرد فحسب إذ كان يرى —